

إيتيقا المسؤولية تجاه الآخر عند إيمانويل ليفيناس أو الأنا حارس للآخر

سلمى بالحاج مبروك
باحثة تونسية



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

المخلص:

تهتم الدراسة بالعلاقة بين الذات والغير وترصد التحولات الكبرى التي دفعت إلى إنهاء حالة الحصار والارتهان التي كان يعاني منها الغير ودشنت أرضية مضيافية ضمن أفق ايتيقي يتم فيه تحسين العلاقة البيذاتية واستقبال الآخر بوصفه حدثاً ضمن نطاق الذات وتحمل مسؤولية الاعتناء به وتثمين دور الوساطة التي يؤديها الوجه في إعادة تشكيل الهوية الإنسانية وتبرئة الذمة الأصلية، وهذا من خلال البحث في مشكلة التأسيس الإيتيقي للمسؤولية الذاتية تجاه الغير. إذاً، كيف قام ليفيناس بالانتقال من الأنطولوجيا بلا ايتيقا إلى الإيتيقا بلا أنطولوجيا؟ وماهي المسالك الإيتيقية التي اتبعها لإخراج الغير من الاحتقار والاستبعاد إلى الاحترام والحراسة؟ ولماذا اعتمد ليفيناس على مفهوم الوجه بوصفه منبع اللقاء بين الذات والغير؟ ثم إلى أي مدى ساهم مبدأ المسؤولية في اكتشاف مفهوم الغيرية الجذرية والتخلي عن ذاتية الأنا؟



مقدمة:

في جحيم عصر يتسم بانتصار التقنية على الإنسان وفي سياق تاريخي يتميّز بالتفكير في الإنسان خارج الميتافيزيقا وخارج الله وتحت راية الدراسة الموضوعية العلمية للإنسان وما يستتبعه من إمعان العلوم الإنسانية الهستيري في التنكيل والتمثيل بإنسانية الإنسان وتحويلها إلى مجرد جثة باردة مهدورة الكرامة قابلة للانعطاء المعرفي الموضوعي، انبثقت فلسفة ليفيناس الإيتيقية احتجاجاً على ما وصل إليه العصر من عبث بإنسانية الإنسان، ومنذرة بالمصير المجهول الذي ينتظره إذا ما استمرّ العلم ومعه فلسفات الذات في تسديد طعنات الإهانة له. فما انفكّ العلماء والفلاسفة في عصره يعملون بخطى حثيثة على تدرية إنسانيته الكلية داخل كيانات فردية معزولة تموت من فرط الخصوصية ويتحول الأفراد بمقتضاها إلى كائنات نرجسية منطوية على ذاتها منهمة بذاتها ومنشغلة عن كلّ ما حولها عبر ممارسة طقوس "التطهر من الآخر" والتّصل من كل أعباء المشتركة الإنسانية. هذه الذوات الفردية يحركها وهم الاعتقاد أنّ الاختلاف البشري في الوسائل يؤدي حتماً إلى اختلاف في الغايات والحال أنهم ينسون أنّ البشرية تتوحّد في المصير والغايات وهي بلوغ "الإنسان الأسمى" بلغة نيتشه.

في ظل هذا الإرث الأنطولوجي الفلسفي الاختزالي الذي ما انفكت الفلسفة الغربية تمارسه تجاه الذات والآخر والعالم عبر تحويل الذات المفكرة المتأملة في العالم إلى مجرد ذات مستلبة ومهيمنة على العالم وتتنظر إلى الآخر نظرة قمع واضطهاد اختزلته العبارة الشهيرة التالية "الجحيم هو الآخرون" للفيلسوف الفرنسي الوجودي جان بول سارتر. ومع فلسفة فينومينولوجية قدمت نفسها فلسفةً مهمتها "إصلاح الإنسانية"، وذلك بتذكيرها بهويتها وبالعودة إلى البيذاتية والذاتية اللتين وقع تغييبهما بفعل الموضوعية وعملية "تربيض الطبيعة"¹ لم تتجح في كسب الرهان.

أمام كل هذه الظروف والمعطيات اندفع الفيلسوف الفرنسي المعاصر ذو الأصل اللبوتاني إيمانويل ليفيناس المولود سنة 1906 والمتوفى سنة 1995 إلى نقد الفلسفة الغربية مندداً بالسياسة التوسعية للعقل والحرية التي ترفض غيرية الآخر المطلقة وتقوم بتشكيله حسب تمثلاتها الذاتية ليسهل السيطرة عليه. في هذا الإطار يرفض ليفيناس التفكير في الآخر من خلال الذات، لأنّ الآخر ليس لا أنا أو أنا أخرى، كما أنّ الآخر ليس سلب الذات عينها بل هي غيرية غير قابلة للاختزال لذلك يقول ليفيناس "نحن محاطون بالموجودات والأشياء حيث نتعهد معها بعلاقات، عن طريق النظر واللمس والتعاطف والعمل المشترك، فنحن مع

¹ محمد الجوة، مسائل فلسفية، الفصل الثامن: ما هي الفينومينولوجيا؟، مركز النشر الجماعي، تونس، 2000، ص 283

الآخرين. وكل هذه العلاقات انتقالية: ألمس شيئاً، أرى الآخر. لكن أنا لست الآخر.² من هنا يكون منطلق ليفيناس ليس إذن الذات كما عودنا عليها الإرث الفلسفي الغربي الحداثي والأنواري وما بعد الأنوار ولكن الآخر حيث يمثل اللقاء به إطاحة بالذات وكسرًا لوهم اكتفائها بذاتها. وعلى الرغم من أنّ فلسفة ليفيناس تعود في أصلها إلى فلسفة هوسرل الفينومينولوجية وفي مرحلة لاحقة لهيدغر فإنّ عنايته الخاصة بالعلاقة مع الغير وإصراره على استقبال هذا الآخر وضيافته من خلال الوجه الذي يبدو أكثر أصالة بالنسبة إليه من الوعي القصدي عند هوسرل جعله يبتعد عنها. إنّ سؤال العلاقة مع الآخر يبدو أكثر جذرية من سؤال الوجود حسب ليفيناس، من هنا الأفضلية الممنوحة للإيتيقا على حساب الانطولوجيا حيث تتحول الذات بموجبها من ذات حارسة للوجود إلى ذات حارسة للآخر ذلك ما يسميه ليفيناس "بالمسؤولية تجاه الآخر"، أين تتجلى مسؤوليتي تجاه وجهه، إذ يؤكد ليفيناس "أنّ العلاقة بالوجه هي علاقة على الفور أخلاقية"³، "فهو يطلب مني بالألّا أتركه يموت وحيداً، وكأنّ تركي له يجعلني شريكاً في موته. هكذا فإنّ الوجه يخاطبني قائلاً "لن تقوم بالقتل أبداً"⁴ لأنّ قتل الآخر يعني "فقدان الوعي الذاتي فرصته في الحصول على الاعتراف"⁵ بلغة جوديث بتلر. قبالة هذا العنف الموجه في الواقع نحو كل آخر وخاصة ذلك الذي يزخر به عالمنا المعاصر والذي يرتكب باسم الآلهة وتحت راية "الحرب المقدسة"، تتزايد حاجتنا لتحمل المسؤولية تجاه النوع الإنساني ولعل هذا الهاجس هو الذي حرك ليفيناس وهو المعاصر لحربين عالميتين ولهتلرية كان يعتبرها بمثابة "المحنة الأكبر التي عانى منها اليهود"، من هنا كان العنوان الأكبر لفلسفته ليست الانطولوجيا بل الأخلاق التي جعل منها ليفيناس الفلسفة الأولى حيث يقول في كتابه الرئيسي "الكلية واللامتناهي" الأخلاق ليست فرعاً من الفلسفة، وإنما هي الفلسفة الأولى⁶. فالرغبة في الهيمنة وفي ممارسة العنف واللاعدالة واختزال الآخر إلى أنا أخرى هي ما تعطي المشروعية لفلسفة ليفيناس لأن تتأسس بوصفها مسؤولية أخلاقية تجاه الآخر ومن أجله. وبما أنّنا كائنات اجتماعية فإنّ الإنسان هو ذات قبالة آخر أو "أنا" قبالة "الأنث". فهو لا يثبت وجوده ولا ينكشف إلا في حضور الآخر ومن خلال علاقة مسؤولية تجاه الآخر. أن يكون الواحد مسؤولاً عن الآخر فهذا ليس شيئاً سهلاً.. وهو ما يدفعنا لطرح جملة من الإشكاليات والصعوبات التي يمكن أن تثيرها علاقتنا بالآخر على نحو المسؤولية. فما الذي يعنيه مفهوم المسؤولية عند ليفيناس بصفة خاصة وتجاه الآخر بصفة أشمل؟ كيف ساهم ليفيناس في الانتقال

² Levinas Emmanuel, *Le Temps et l'autre*, édition PUF, Quadrige, Paris, 1983, p21

³ جان ماري مولر: نص محاضرة أعهده لجامعة "أونوروا" "جامعة اللاعنف وحقوق الإنسان في العالم العربي بلبنان"، ترجمة الدكتور جبروم شاهين

⁴ Revue Esprit; n°7; Juillet 1997, pp121-140:

مقال مترجم من قبل إدريس كثير وعز الدين الخطابي ورد بمجلة "أوراق فلسفية" العدد 17، القاهرة، 2007

⁵ جوديث بتلر، الذات تصف نفسها، ترجمة فلاح رحيم، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2014

⁶ Levinas Emmanuel, *Totalité et infini, Essai sur l'extériorité*, édition Nijhoff La Haye, 1961, p281

بالفلسفة من مشروع أنطولوجيا الذات عينها إلى إيتيقا المسؤولية بما هي الفلسفة الأولى؟ هل تشكل إيتيقا المسؤولية انقلاباً ميثاقياً على أنطولوجيا الذات؟ ما طبيعة المسؤولية تجاه الآخر هل تقوم على التبادل والتناظر بحيث أكون مسؤولاً عن الآخر بقدر مسؤوليته عني أم أنّها مسؤولية لانهائية في اتجاه واحد؟ ما المقصود بالمسؤولية اللامتناهية ولماذا يمثل نداء الوجه مسؤولية على الذات الاضطلاع بها دون قيد أو شرط؟ وهل في ارتهان الأنا لوجه الآخر وصوته وامثاله لوصية "لا تقتل" التي يفصح عنها الوجه ما يحمل الأنا مسؤولية لا مشروطة ولا متناهية إلى حدّ تصبح فيه الذات عينها مجبرة على أن تكون مسؤولة تجاه الآخر وليس لها الحرية في الهروب من هذه المسؤولية الإيتيقية إزاءه؟ أليست الأنا أمام ماهية جديدة وكوجيطو مغاير مشروط ماهيته ووجوده بمدى استعداده لتحمل المسؤولية تجاه الآخر ومن أجله، بحيث تصبح المسؤولية هوية الذات عينها وهي موجودة بقدر ما هي مسؤولة عن الغير؟ أليست فلسفة ليفيناس في تأكيدها آخريّة الآخر وضرورة حمايته والتعاطف والتضامن معه هي احتفاء بإنسانية الإنسان الآخر وانتصار لاختلافه وغيرويته ولا تطابقه ولا تماثله؟ لكن هل وحدها الأنا تتحمل أعباء مسؤولية الآخر؟ ماذا يبقى لمؤسسات الدولة من واجبات تجاه الأفراد إذا كانت كل أعباء الآخر تتحملها الأنا بوصفها المسؤولة الأولى عنه مسؤولية لا متناهية؟ ماذا لو ظهر الطرف الثالث الذي هو آخر الآخر ولكن قريبه؟ أليس المطلوب عندها أن تترجم المسؤولية إلى عدالة تسهر على تحقيقها مؤسسات الدولة؟ فماذا لو كان واقع الدول قائماً على الحروب أكثر من السلام كما يظهره واقعنا المعاصر ألم "يعتبر كانط في كتابه "مشروع للسلم الدائم" أنّ السلم الدائم غير قابل للتنفيذ، إنما يمكن أن تقترب منه اقترباً لا حدّ له"⁷.

عندها على من تقع مسؤولية اللاعنف وحماية الآخر من القتل والعنف والحرب هل على الأنا وحدها بوصفها مسؤولة مسؤولية مباشرة عن الآخر، حتى وإن لم يكن هذا الآخر مسؤولاً تجاه الأنا أم على الدولة التي تملك العنف المشروع لمنع العنف المعمّم؟ كيف ارتبط الانقلاب الإيتيقي لليفيناس بالتلفت عن الأنطولوجيا والاهتمام بالإيتيقا؟

⁷ غاستون بوتول، هذه هي الحرب، ترجمة مروان القنواطي، منشورات عويدات، بيروت، الطبعة الأولى 1981، ص 19

1- من أنطولوجيا الذات إلى إيتيقا الذات:

أ- جذور تراجيديا احتقار الآخر

الفيلسوف ليس وليد يومه كما أنّ فلسفته ليست وليدة صيحة عبثية في واد الوجود الضائع، فمثلما أنّ الفلاسفة لا يطلعون طلوع الفطر، كما سبق لماركس أن بيّن ذلك، فإنّ فلسفتهم لا تنشأ بعيداً عن ضجيج العالم وجلبته ولا في غياب استفزازات الواقع الذي ينغرسون في عتمته ومجمل مشاكله. وهذا ما ينطبق على الفيلسوف اليهودي الأصل والمنشأ إيمانويل ليفيناس، والذي وجد نفسه في ظل عصر تميز بهيمنة التيارات الشمولية الفاشية والنازية وحتى يضمن التحدي ضد عصر الخراب هذا عاد ليفيناس إلى التراث الفلسفي الغربي ذاته والتراث اليهودي التوراتي لينهل منه فلسفته الإيتيقية التي تولي عناية فائقة للآخر والمسؤولية تجاهه إلى حد ذهاب البعض إلى تسمية ليفيناس "بفيلسوف الغيرية بامتياز"، من هنا نستطيع أن نميز ثلاثة عناصر أساسية متقاربة منحت فلسفة ليفيناس قوتها وأصالتها الخاصة:

- الأولى مرتبطة بتراجيديا تاريخية: وهي النازية بما هي صورة كاريكاتورية مؤلمة لفكر شمولي لا يحمل سوى مشاعر الاحتقار للإنسان.

- الثانية متأتية من الفكر الفلسفي الغربي الذي يشترك في كونه فكراً منسحباً داخل ذاته منطوياً على إنيته متعالياً عن كل ما هو آخر، بما هو تفكير في المطابق والمماثل والكلية.

- أما العنصر الثالث والأخير فهو التراث اليهودي العبري والتوراتي الذي نهل منه ليفيناس والذي استلهم منه فكرة قداسة الإنسان وتحريم قتله عبر العبارة التوراتية التالية "لا تقتل". إنّ تفاعل هذه الأطر الثلاثة هو الذي ساهم في جعل الفلسفة عند ليفيناس تتمحور حول فكرة "الإنسان الآخر" الذي لم يدخر ليفيناس جهداً من أجل الدفاع عن آخريته وغيريته المختلفة.

لعل استماتة ليفيناس في الدفاع عن إنسانية الإنسان الآخر متأت من هذا الوضع البشري المزري الذي عرفه إنسان القرن العشرين مما أثار فيه وجعله يفقد ثقته في العالم الذي يعيش فيه.

ب- مظاهر احتقار الآخر:

من مظاهر احتقار الآخر أنّ الذات لم تعد تمتلك أي معنى وأي وزن إيتيقي فالنازية مثلاً تعامل النساء والأطفال لا من حيث هم نوات ولكن بوصفهم أشياء، بوصفها سلعاً دون قيمة. إنهم لم يعاملوا حتى كأعداء

يجب محاربتهم، أو أسرى يمكن مبادلتهم، ولكن كأشياء يجب تدميرها إلى "ذروة المعاناة اللامفيدة" التي ظهرت في معسكرات أوسفيتش الذي مثل رمز النظام اللإنساني في أشد مظاهره قسوة وتطرفاً وازدراء للأخلاق ولكل القوانين، وقس على ذلك في مناطق أخرى من العالم حيث تشتعل الكراهية بين شعوب وديانات مختلفة إضافة إلى وزر الحربين العالميتين وما خلفته من قتل ودمار، فآلاف الضحايا حسب ليفيناس هم "ضحايا لكراهية الإنسان الآخر ذاتها".

أما فيما يتعلق بالفلسفة الغربية فإنها فلسفة قد انشغلت بالانطولوجيا وأعطتها أولوية "لأنّ علم الوجود ينظر إلى الوجود على أنه استمرارية في الكيان... حيث يكتفي الكائن بالتفكير في الوجود يصبح انطواء على الذات وأنانية. فالكائن لا يهتم إلا بإشباع احتياجاته، ويسعى لتأكيد ذاته في التمسك والسيطرة"⁸. ألا تتحول الأنانية البشرية إلى مديح ذاتي وندرجسية مرضية؟ فما الذي جعل ليفيناس يعتبر أنّ الانطولوجيا قد قامت على سلب أخرىة الآخر واحتقاره؟

إنّ لزومية التفكير للوجود وارتباط هذا الوجود بمفهوم الكوناتيس بما هي رغبة في البقاء في مرحلة لاحقة تجعل الهم الوحيد للإنسان هو الاستمرار في الوجود بكل الوسائل المتاحة حتى ولو كلفه وجوده إزاحة الآخر والإطاحة به في فوهة العدم وهذا ما يحول الآخر إلى عدوّ يجب التخلص منه ولو بفعل القتل والحرب.

بهذا المعنى يصبح علم الوجود أو الانطولوجيا "فلسفة للقوة والتسلط والاحتلال والعنف" والحرب على حد عبارة جان ماري مولر ليست مجرد "محنة أخلاقية" بل تجعل من الأخلاق مجرد سخر كما يعتقد ليفيناس وحتى السياسة يعرفها بفن الفوز بالحرب عبر كل الوسائل المتاحة لذلك تبقى السياسة الاسم الآخر للانطولوجيا التي تقوم على الصراع ونزع الاعتراف المتبادل من الآخر، ولعل أكبر الحروب وأعنفها تتمثل في تشيئة الآخر وتجاهل غيريته، بمعنى نفي وجوده وإسقاط أخريته واختلافه في النسيان حسب ليفيناس، وهذا ما يفسر سلب الغيرية من خلال الكلية حتى أنّ فكرة اللامتناهي غير ممكنة إلا في حالة تجاوز شرنقة الذاتية بفرقة الآخر يمكن الذهاب في اتجاه الله حيث يقدم ليفيناس الإنسان على الله.

فإذا كانت الحداثة قد فهمت الوجود على نحو كلي ومطابق ينطلق من الأنا الممجد لذاته بوصفها أنا شمولية تعيش في العالم متطابقة مع ذاتها ضد الآخر، بل مختزلة كل ما هو آخر برده إلى الأنا وتصفية الأخرية المطلقة للآخر، فإنّ ليفيناس قد اعترض على شكل هذا التعامل العنيف مع الآخر داعياً إلى تطوير العلاقة معه على أرضية أخلاقية مبهرة حيث بإمكان الذات أن تكون نموذجاً لاستقبال الآخر وإكرام ضيافته حتى يتسنى لهم

⁸ جان ماري مولر: إيمانويل ليفيناس: إنسية الإنسان الآخر، ورد بمجلة "أوراق فلسفية" العدد 17، القاهرة، 2007

الاعتراف بإنسانية الإنسان الآخر، حيث رأى ليفيناس إمكانية تحقيق هذا الرهان على إنسانية الإنسان من خلال جملة من الشروط. فما هي الشروط الممكنة حسب ليفيناس لتحسين علاقتنا بالآخر والانتقال بها من علاقة تتأسس على العداوة إلى علاقة تتأسس على الصداقة وحسن الضيافة؟

ج- شروط تحسين علاقتنا بالآخر:

يحاول ليفيناس من خلال فلسفته الإيتيقية الجديدة، التي يعتبرها فلسفة أولى، أن يبحث في شروط تحسين الذات علاقتها بالآخر وأن تكفر عن كل التجاوزات والإهانات التي ارتكبتها في حق الآخر من خلال تاريخ طويل في طمس هوية الآخر وعدم الاعتراف بغيريته المختلفة وردّه إلى مجرد أنا أخرى. وتكفيراً منه عن خطأ الفلسفة والفلاسفة.

يقدم ليفيناس تصوره القائم على تجاوز نظرتنا المختلة للآخر من خلال الشروط التالية التي يعتقد في قدرتها على ترميم علاقتنا بالآخر بل وتحسينها: "الأولى: لكي يعيش الناس إنسانيتهم، ليسوا في حاجة لكل هذا البذخ الحضاري، إذ يمكنهم أن يتقاسموا الحد الأدنى منه، ويعيشوا على الكفاف والعفاف والغنى عن ترف الحضارة.

الثانية: لنعش تحت ظل التين والزيتون ولنعتقد في عودة القيم. ولنتحمل مسؤولية السلام ولنغامر بشكل حربي من أجل إبعاد كل خطر عن الإنسانية.

الثالثة: لنتعلم كيف نكون أقوىاء في العزلة، وأن نجعل من ضعف وعينا قوة، ومن شتات عالمنا نظاماً وانسجاماً، ومن خجلنا من أنفسنا فخراً.⁹ فما طبيعة هذه الأخلاق التي تؤسس للقاء غير عنيف مع الآخر؟ "وهل يمكن للكائن الدخول في علاقة مع الآخر دون أن يسحق آخريته؟"¹⁰.

2- الإيتيقا فلسفةً أولى أو الآخر في ضيافة الأنا:

أ- ظهور الآخر حدثاً:

يعتبر ليفيناس أنّ الاعتراف بالآخر هو شرط لتأسيس علاقة أخلاقية معه بل إنّ علاقتنا الأخلاقية معه تسبق علاقتنا الانطولوجية بذاتنا والعالم ومن هنا تأكيد ليفيناس على هوية جديدة للذات حيث يصبح الآخر

⁹ Levinas Emmanuel, *Noms propre*. Livre de poche. Montpellier, Fata Morgana, 1976, p143

¹⁰ ليفيناس إيمانويل، *الزمن والآخر*، ترجمة دكتور جلال بدلة، معابر للنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 2014، ص 84

شرطاً لهوية الذات فقد كتب كابوتشينسكي أنّ فلسفته جاءت جواباً على كوارث القرن العشرين وما اقتترفه الإنسان بحق أخيه الإنسان، وهو ما جعل ليفيناس يرى في العلاقة مع الآخر علاقة مؤسسة للأخلاق، حتى أنّه اختار كلمة «الدين» لوصف هذه العلاقة أو هذا اللقاء بالآخر الذي يتأسس على المسؤولية وليس على الحرية، فالآخر مصدر الأخلاق وأصل المعنى، ويرتبط التفكير في الآخر بواقع تاريخي/ إنساني شاهد على كثير من العنف تجاه الآخر سواء باعتبار هذا الآخر ثقافة أخرى أو أشخاصاً وكل الذين تم الدفع بهم ومحاصرتهم في زاوية الهامشيين، وتم اعتبارهم بشراً من درجة ثانية. يتعلق الأمر في النهاية بالنظر في منزلة الأرملة واليتيم والمعوق والمهاجر والأقليات والمعدمين، منزلة ارتبطت بممارسة جميع أشكال الاستبعاد والإقصاء والعنف تجاههم.

من هنا استطاع ليفيناس أن يقدم مشروعاً مختلفاً عن الطريقة التي اعتادت أن تفكر الفلسفة من خلالها، أي أن لا يكون التفكير في الوجود والمعرفة هما اللذان يقودان للتفكير في المسألة الأخلاقية، وإنما الانطلاق من الأخلاق ذاتها مبدأً أول لكل فعل فلسفي. يتعلق الأمر إذن بالإيتيقا باعتبارها المجال الذي يجب أن تقارب داخله مسألة الذات في علاقتها بالآخر المختلف اختلافاً لانهائياً. ولقد اعتبر ليفيناس هذه الإيتيقا "بمثابة فلسفة أولى" رداً على الفلسفة الغربية التي ساهمت في اضطهاد الآخر وسلب غيريته وذلك عبر:

أولاً: تحويل الآخر إلى موضوع للمعرفة: من خلال دفع الذات إلى محاولة اختزال الآخر في معطيات محددة تتناسب وانتظارات الذات بما يجعل من الذات قادرة على استيعاب الآخر في بنيتها الخاصة بحيث تكون كل معرفة تملكاً. وبمجرد إخضاع الذات للمعرفة نكون قد نجحنا في السيطرة عليها وحتى امتلاكها.

ثانياً الآخر وسيلة لإشباع حاجات الأنا: تكون العلاقة مع الآخر في هذه الحالة مستندة إلى مبدأ الحاجة بحيث يكون الآخر موضوعاً لاستكمال نقص وحاجة داخل الذات. بذلك لا يكون حب الآخر حباً يتعلق بالآخر في ذاته، وإنما اهتمام من الآخر انطلاقاً من البحث عن إشباع حاجاتي الخاصة، وتكون العلاقة مع الآخر مبنية في هذه الحالة على أنانية مطلقة للذات لا ترى في الآخر إلا ما يشبع حاجتها، حيث يتحول الآخر إلى مجرد أداة أو وسيلة.

ثالثاً: الآخر بوصفه موضوع هيمنة: الوجه الثالث للعلاقة الممكنة بين الذات والغير هي تلك العلاقة القائمة على إرادة الهيمنة والتسلط حيث تسعى الذات لبسط هيمنتها وإرادتها على الغير ولا ترى فيه بالتالي نداءً لها وإنما فقط موضوعاً لسلطتها، إنّ العلاقة مع الآخر لا يمكن تأسيسها انطلاقاً لا من مبدأ المعرفة (تحويل الغير لموضوع للمعرفة ومن ثمة للتملك)، ولا على أساس الحاجة (تحويل الآخر إلى مجرد وسيلة وأداة لإشباع حاجات الذات)، ولا انطلاقاً من إرادة الهيمنة (تحويل الغير لموضوع للهيمنة والتسلط). مقابل هذه الأشكال من

العلاقة التي يفضي إليها التصور التقليدي للذات بداية من ديكارت ووصولاً إلى الفينومينولوجيا سعى ليفيناس إلى تأسيس شكل آخر من العلاقة. تبرز هذه الجدة كما أسلفنا في إعادة تشكيل مفهوم الذات ذاته، وتأسيسه داخل سياق الإيتيقا، وهو ما يعني النظر للذات لا كائناً متعالياً منغلَقاً على ذاته ومكتفياً بها وإنما باعتبار الذات "ذات مضيافة". فعلام يتأسس مفهوم الضيافة عند ليفيناس؟

ب- مفهوم الضيافة ومسوغاته:

يعني مفهوم الضيافة عند ليفيناس قدرة الذات على استيعاب الآخر أكثر مما تقدر عليه هذه الذات، فما أطلبه من نفسي لأجل هذا الآخر لا يتساوى مطلقاً مع ما يمكن أن يقدمه لي لأنّ هذا الكرم اللامحدود تجاه الآخر لا يمكن أن أطلب مقابله معاملة بالمثل، ويقوم مفهوم الضيافة عند ليفيناس على اعتبارين: الاعتبار الأول يرى أنّ حقيقة الآخر مرتبطة بالضعف والهشاشة من جهة، وبالتالي فهو معروض أمامي في عريه، وهو معرض لخطر قوتي وتهديدي باستغلال هذا الضعف لممارسة العنف والقوة تجاهه، والاعتبار الثاني هو أنّه على الرغم من ضعفه المعروض أمامي فإنّه من مسؤولية ذاتي مساعدة هذا الآخر وحمايته من ضعفه أمام الأنا من جهة ثانية.

من هنا نستنتج استحالة الحديث عن الأنا والآخر بالمعنى نفسه، فالعلاقة بينهما ليست تناظرية بل خارجية، لأنّ الآخر ليس جزءاً من عالمي، بل هو وجود آخر مختلف عني، وعلى الرغم من اختلافه المطلق عني، بحيث علاقتي معه تقوم لا على التناظر ولا على التضاد ولا على التقابل ولا على الملكية وإنما تقوم على الانفصال التام الذي يجعل لكل واحد فينا كيانه المختلف وعالمه الخاص، وعلى الرغم من كل هذه الفريدة والخصوصية، فإنّ الأنا لها القدرة على احتضان الآخر وضيافته ضيافة إلى حدّ تضحى فيها الأنا بحريتها على مذبح المسؤولية تجاه الآخر. هذا التورط في المسؤولية تجاه الآخر الضعيف الأرملة واليتيم ومن أجله، هو ما يحدد هوية الذات الجديدة كما يراها ليفيناس. فكيف يمثل وجه الآخر العاري أساساً لإيتيقا المسؤولية؟

ج- وجه الآخر العاري بوصفه منبع إيتيقا المسؤولية:

خضعت الذات مع ليفيناس إلى تحول حيث تم تحويل حريتها إلى مسؤولية، أو بعبارة أخرى يتمثل هذا التحول في ربط حقيقة الذات بالمسؤولية، عوض الحرية، بما هي نقطة ارتكاز ليفيناس في مقارنته لعلاقة الذات مع في فلسفته الإيتيقية. ويحيلنا مبدأ المسؤولية تجاه الآخر إلى مفهوم مركزي داخل نسقه ألا وهو مفهوم "تجربة الوجه"، فالوجه عنده هو ما يحدد هوية الذات. وما يجب الانتباه إليه بداية أنّ ما يقصده ليفيناس بالوجه هو كل جزء من البدن يتجلى فيه الضعف ويمكن أن يوجه ضده العنف. إنّ اللقاء بالآخر يتم بتوسط الوجه؛

النظر في وجه الآخر وليس في عينيه هو الذي يشعركنا بالمسؤولية تجاه هذا الوجه العاري والمعرض لكل أشكال العنف وخاصة القتل. فالوجه ذاته معروضاً في عريه أمامي تتجسد فيه كل أنواع الضعف وتجعله عرضة لعنفي ومعرضاً لفعل القتل الذي يمكن أن يصدر عني، ولكن بقدر ما يجعله العري رهين الضعف تتجلى المسؤولية تجاهه، بحيث يصبح فعل القتل شناعة تمنع وتحجر علي أي نية للتخلص من هذا الوجه عبر القتل المتعمد لذلك يصبح القتل أمراً ممنوعاً. يقول ليفيناس "إنّ ملاقاته الإنسان الآخر تسمح لي بأن أكتشف وجهه. والوجه هو هويّة الكائن"¹¹ ويؤكد أيضاً "أنّ" العلاقة بالوجه هي على الفور أخلاقية". الوجه هو ما لا نستطيع قتله، أو هو على الأقل، ما يقول معناه: "لا تقتل أبداً".

صحيح أنّ القتل هو فعل مبتذل حيث باستطاعتنا أن نقتل الآخر. وهنا لا تبدو الأخلاقية ضرورةً أنطولوجية. فتحريم القتل لا يجعل القتل مستحيلاً حتى لو كانت سلطة التحريم موجودة في الضمير الصالح.¹² من خلال ما تقدم نتبين أنّ الأخلاق عند ليفيناس تتأسس في وجه الآخر من حيث هي دعوة للامتناع عن ممارسة العنف تجاه وجه الآخر، إذ يقول ليفيناس في هذا السياق "إنّ أمر "لا تقتل" ليس قاعدة بسيطة للسلوك. بل هو مبدأ الخطاب نفسه ومبدأ الحياة الروحية"¹³.

بهذا المعنى تتحدد العلاقة مع الغير إذن على أساس هذا الإحساس بالمسؤولية تجاه الغير، إحساس يجعل من كل إمكان لتملكه أو الهيمنة عليه أمراً غير مشروع.

وبالتالي يحاول ليفيناس تحرير الآخر من القبضة المعرفية التي تسعى الأنا لإخضاعه لها عبر تأسيس لاستشكال العلاقة مع الغير داخل الإيتيقا وليس داخل المعرفة، وانطلاقاً من مقتضيات الإحساس بالمسؤولية تجاه الغير وليس اندفاعاً تحت تأثير الاعتقاد في حرية الذات. فما هي الحكمة التي يعلمها لنا وجه الآخر؟

3- الوجه وإيتيقا المسؤولية دون لماذا؟

أ- هوية الوجه:

الوجه معنى، إنّه المعنى الحقيقي، حاضر في العالم لكنّه ليس في العالم أو من العالم. الوجه حضور غريب، إنّه ينسحب، إنّه أثر. والأثر يتناقض مع الظاهرة، فالوجه كما يرى بول ريكور "لا يتبدى لأنّه ليس

¹¹ Levinas Emmanuel, *Entre nous, Essais sur le penser-à-l' 'autre*, édition Grasset, Paris, 1991, p46

¹² Levinas Emmanuel, *Éthique et Infini*, Le Livre de Poche, Biblio-essais, Paris, 1992, p81

¹³ Levinas Emmanuel, *Difficile liberté*, Le Livre de Poche, Biblio-essais, Paris, 1990, p21

بظاهرة، بل هو نوع من التجلي " الذي يعبر عن أثر اللامتناهي. وفكرة الأثر عند ليفيناس متأنية من التوراة: الله لم يترك موسى يراه حين مرّ، لكن قد قام بوضع يديه على عينيه. ولم يتمكن موسى سوى من رؤية أثره، انسحاب الله نفسه. فبفضل هذا الانسحاب من الظاهرانية يتجاوز الوجه الظاهرة، ينقذ غيرية الآخر المنفية بواسطة ردها إلى مجرد أنا أخرى. أمام الوجه يتوقف العنف، عري الوجه هو الكلام الأصلي. الوجه الذي يظهر غيرية الآخر ليس موضوعاً قصدياً. غيريته هي ما يهرب عن القصدية. إنّ الوجه بالمعنى الليفيناسي ليس ذلك الوجه الجميل الجذاب، ليس صورة، لا يمكن تمثيله وهو ليس مفهوماً فلسفياً أو مقولة. الوجه يعني أنّه المعنى ذاته، حاضر في العالم ولكنه ليس داخل العالم أو من العالم. الوجه حضور غريب وهو يتناقض مع الظواهر لأنّه أثر التعالي أو أثر الله. فكيف نصغي إلى الوجه؟ وكيف يمكن أن نفهم أنّ واقع العلاقة مع الآخر هو غياب الآخر؟ إذا كان الوجه يوجد دائماً في مكان ما في الماوراء فهل معنى ذلك أننا لا نستطيع مطلقاً اللقاء بالآخر بوصفه فرداً أو شخصاً؟ أليس بهذا الاختزال الإيتيقي نحن نفقد الآخر شخصاً؟

بهذا المعنى يتحدث جون لوك ماريون عن "الاسمى" الوجه. يبدو أن وجه ليفيناس يتألم من المجهول بواسطة الكلية. إنّه يخفي أثر الله، وخلف هذا الأثر ألتقي دوماً اليتيم والأرملة والفقير، ولكن مطلقاً هذا أو ذاك الإنسان الواقعي. الشر يجد مكانه في الوجه المخفي ذاته. الوجه يتجلى غيرية جذرية لكن لا يقول أبداً أي غيرية هو. كيف يتجلى الوجه؟ وما الذي يكشفه إذا كان لا يقدم نفسه للرؤية؟

جواب ليفيناس كما يلي: الآخر لا يقدم نفسه للرؤية ولكن للإصغاء. يقول ليفيناس "الوجه ليس مرئياً... الوجه يتكلم".¹⁴ الوجه هو نوع من نقطة وصول ومطلق، إنّه المعنى الحقيقي، إنّه الحضور الذي يحضر أمامي، إنّه المعنى الذي يلتقي بمعناه، إنّه معنى الصواب المطلق، حضور / غياب، حضور لغياب، إنّه الأثر الإلهي. السلطة الأسمى للوجه التي توجه هي كلام الله. فالوجه مكان الكلام الإلهي. فالوجه تجلّ لأنّه متناقض، فهو ضعف وسلطة في الوقت نفسه. هذا التناقض هو ما يصنع غرابية الوجه وما يجعل الآخر يستتجد بالأنا لتحرس ضعفه وهشاشته. فما معنى أن تكون الأنا حارساً للآخر؟

ب- الأنا حارس الآخر:

يعتقد ليفيناس أنّ وصية "لا تقتل" تمثل منعرجاً في علاقتنا بوجه الآخر حيث تفرض عليّ نوعاً من المسؤولية أمام الآخر تمنعني من التهرب من المسؤولية تجاهه وصمّ أذني عن سماع نداء استغاثته، فالآخر وجه والوجه لا هو بالظاهرة ولا هو بظاهرة مضادة وإنما هو ضدّ الظاهرة إذ يقول ليفيناس في هذا الإطار

¹⁴ Levinas Emmanuel, *Transcendance et Intelligibilité*, Labor et Fides, Genève, 1984, p79



أخرى إنَّها شكل من المسؤولية اللامتناهية. فبعيداً عن غلقها في علاقة ثنائية يقوم ليفيناس بتوسيع معنى المسؤولية لتشمل اللامتناهي، حيث تمتد إلى الغريب وحتى العدو ليصبح لها بعد سياسي مؤسس للمدينة والدولة. فالرهينة تعني وضعية من يعيش في تبعية للآخر دون أن يختار هو ذلك، وأنا حسب ليفيناس قد وجدت نفسها في وضعية ملزمة على تحمل أعباء الآخر ومسؤوليته ليس بالمعنى القانوني: أنا مسؤول عن أفعالي، وإنَّما بالمعنى الإيتيقي "أنا مسؤول تجاه الآخر" دون أن أنتظر منه أن يكون مسؤولاً تجاهي. وهذه المسؤولية دون قيود أو حدود إلى درجة يجب عليّ أن أشعر فيها بأنّي "مسؤول عن مسؤوليته" كما يقول ليفيناس. وحسب قراءة بول ريكور لليفيناس فإنَّه يرى أنّ الذات مطالبة بالمسؤولية وأنّ الذي يطالبها بل وحتى يأمرها بتحمل المسؤولية هو الآخر، فالآخر يطلب والذات تستجيب لهذا الأمر أو الطلب أو النداء يقول ريكور "طبعاً إنّ الذات "مطالبة بالمسؤولية" من قبل الآخر. غير أنّ المبادرة بالأمر تعود إلى الآخر، وبالتالي فإنّ الذات تكون بصيغة المفعول به لا الفاعل حين يبلغها الأمر. والإلزام بالمسؤولية ليس له من مقابل سوى أنا مستدعاة".¹⁹ فما أساس هذه المسؤولية؟

إنّ أساس المسؤولية منبعت من شعور الخشية على الآخر من عنف الموت، من رحيله وفقدانه، وأنّ الموت الذي يتحدث عنه ليفيناس ليس الموت الطبيعي الهادئ، وإنَّما الموت الذي يأتي نتيجة فعل القتل العنيف، لذلك يقيم تمييزاً بين فعل القتل وألم الموت، فقد نختار خطر الموت في سبيل ألا يقتل الآخر يقول ليفيناس "الخوف على موت الآخر يتقدم على خوفاً على ذاتي... وأن يعيش في سبيل الآخر، أي أن يضع نفسه في تساؤل وأن يخاف من القتل أكثر مما يخاف من الموت".²⁰

فإذا كان ليفيناس يحدد المسؤولية تجاه الآخر من طرف واحد، أي أن أكون مسؤولاً عن الآخر دون أن ألزمه بمبادلتني المسؤولية نفسها، فهل نحن أمام نوع من المسؤولية اللامتناهية؟

د- المسؤولية اللامتناهية:

إذا كانت الأنا رهينة الآخر فإنّ الآخر حسب ليفيناس ليس رهين الأنا ولا يمكن أن يصير رهين الأنا، وهذا ما يحدد اختلاف الأنا عن الآخر. فالمسؤولية دوماً في اتجاه واحد. إنَّها تأتي من الآخر وتتمركز في الذات دون أن أكون قد اخترتها، دون أن تطلب مني حقّ الدخول، لكنها تستدعي الأنا لتكون متجهة نحو الآخر. إنّ الاختلاف بين الأنا والآخر ليس بسبب الاختلاف في الخصائص النفسية، ولكن بفعل الوضع المختلف. فنحن لا

¹⁹ بول ريكور، الذات عينها كآخر، مرجع مذكور، ص ص 374-375

²⁰ Emmanuel Lévinas, Entre nous Essais sur le penser-à-l' 'autre, p228

نعيش في "مكان متجانس أو مجرد، لكن في عالم أين علينا أن ننفذ ونعطي"²¹، حيث أكون دائماً مديناً تجاه الآخر دون أن يكون هو مديناً تجاهي. فإلى أي حدّ تمتدّ هذه المسؤولية تجاهه؟ حسب ليفيناس "مسؤوليتي تمتد إلى حد المسؤولية التي يمكن أن يأخذها الآخر. أنا دائماً أملك مسؤولية أكثر من الآخر، لأنني مسؤول عن مسؤوليته، وإذا كان هو مسؤولاً عن مسؤوليتي، فأني مازالت مسؤولاً عن المسؤولية التي تأتيه من مسؤوليتي... وهذا الأمر لا ينتهي أبداً"²². فليس من مشمولاتي أن أفرض على الآخر مسؤوليته، في حين أنني لا أستطيع رفض سماع صوته الذي يحدد مسؤوليتي نحوه. نستطيع التعبير عن هذه المسؤولية الكلية الشاملة بالقول إنّ شأنه هو شأني لكن العكس ليس صحيحاً، لأنّ لي مسؤولية دائماً أكثر من الآخر بحيث لا أستطيع أن أتركه وحيداً عارياً، وعلاقتي به لا يمكن أن تنتهي أبداً فهي تذهب ما وراء الواجب، إنّي في خدمة الآخر.

غير أنّ المسؤولية حسب ليفيناس ليست فقط مسؤولية "تجاه" الآخر، لكن أيضاً "من أجل" الآخر، في مكانه، هذا يؤدي إلى أنني يمكنني أن أحل محل مسؤوليته، حتى وإن كان لا أحد يستطيع أن يحل محلي ليتحمل مسؤوليتي. أنا مسؤول عن الآخر، مسؤول حتى عن مسؤوليته. ينقل ليفيناس كلام جوهدا لاليفي الذي قال "الله يتحدث لكل إنسان بصفة خاصة" ويضيف كل فرد منتخب بصفة افتراضية مدعو للخروج بدوره أو دون انتظار دوره من مفهوم الأنا للاستجابة لنداء المسؤولية وأن أكون مستعداً من أجل الآخرين. الانتخاب يعني أنني الوحيد المعني بهذه المهمة والمعين للقيام بها وتحمل أعبائها، وأنه لا أحد يستطيع أن يعوضني أو يحلّ محلي. إنها تستدعي حريتي دون أن تستوجب حريتي. العلاقة البيدائية هي علاقة غير متماثلة بهذا المعنى أنا مسؤول عن الآخر دون أن أنتظر منه أن يبادلني المسؤولية نفسها. فالمبادلة شأنه الخاص، وبما أنّ العلاقة بين الآخر والأنا لا تقوم على المبادلة فأنا بهذا المعنى أكون خاضعاً له وأنا ذات بهذا المعنى وأنا من يتحمل كل شيء.

لا شك أنّ ليفيناس قد استلهم عبء المسؤولية على هذا النحو القاهر والمسؤول من دوستوفسكي ومن قولته الشهيرة التالية "كل واحد منا هو مذنب أمام الجميع ولأجل الجميع ولأجل كل شيء، وأنا مذنب أكثر من الآخرين." والتي تتردد على لسان أحد شخصيات "الأخوة كارامازوف". بهذا الاستلهام الذي يستمدّه ليفيناس من دوستوفسكي تتسع دائرة المسؤولية حيث يتحول الإحساس بالذنب تجاه الآخر إلى إحساس بالمسؤولية اللامتناهية تجاهه أو مسؤولية المسؤولية. إنّ امتداد المسؤولية يتجاوز العلاقة الثنائية بما أنّها لامتناهية فهي تشمل الغريب وحتى العدو الذي حينما يضطهدهني لا يدفعني للانتقام منه بل الاضطهاد هو الوجه الآخر

²¹ Emmanuel Levinas *Totalité et Infini*, op.cit, p191

²² Levinas Emmanuel, *L'Au-delà du verset*, édition Minuit, coll. «Critique». Paris, 1982, p106

للمسؤولية تجاه هذا الآخر حسب ليفيناس، لأنّي مسؤول عن الاضطهاد الذي أتعرض إليه من طرف الآخر. هكذا تبدو الأنا دائماً ذات مسؤولية تفوق مسؤولية كل الآخرين. إنّه شكل من الانهماك بأخرية الإنسان الذي لا يمكن الإفلات من قبضته. بل إنّ ديكتاتورية الآخر على الذات عنيفة إلى درجة انتفاء الأنا في حضور/غياب الآخر. فإلى أي حدّ يمكن للصوت الآتي من الضفة الأخرى أن يبلغ مسامعي ويستدعي مسؤوليتي؟ وهل يمكن أن تتجاوز هذه المسؤولية نمط العلاقة القصيرة والمباشرة مع الآخر بوصفه قريباً لتمتد المسؤولية إلى ما وراء الحضور المباشر له؟ كيف تؤدي السياسة إلى نسيان الآخر؟

خاتمة:

من المعلوم أنّ الأنا والآخر لا يعيش كل واحد منهما منفرداً على أرض نائية أو جزيرة منعزلة، بل إنّ علاقة الأنا مع الآخر تتأسس داخل فضاء اجتماعي وسياسي يتكون من كثرة من الأفراد ومن تعددية بشرية، فالكثرة تفترض نظاماً اجتماعياً ومجالاً سياسياً يتعايشون ويتواصلون داخله. إنّ هذه الأطراف المتعددة هي الآخر الثاني الذي يظهر بيني وبين الآخر هو ما يسميه ليفيناس "الطرف الثالث". وبدخول هذا الطرف الثالث تحضر السياسة التي يقتضي دورها إنشاء نظام عدالة يتجاوز حدود علاقة "الأنا" و"الأنت"، ويأخذ بعين الاعتبار حضور الطرف الثالث الذي هو مهدد بالنسيان في إطار العلاقة المباشرة. من هنا يمكن أن تأخذ المسؤولية بعداً سياسياً وهي مؤسسة للمدينة والدولة، على الرغم من أنّ ليفيناس يعطي أولوية قصوى للمسؤولية الذاتية ويعتبر أنّ مسؤولية الذات تجاه الآخر أعظم من المسؤولية المؤسساتية للدول، يقول ليفيناس في هذا الشأن "هناك دموع لا يستطيع موظف دولة أن يراها: إنّها دموع الآخر... الأنا وحدها تستطيع رؤية الدموع السرية عند الآخر والتي يسببها التنظيم العقلاني للسلطة"²³.

فإذا كان دور الدولة ووظيفتها هو إنشاء نظام عدالة متبادل فإنّ هذا الدور لا يقلص في شيء من مسؤوليتي. نفهم من هذا أنّ السياسة عند ليفيناس لا تحتل المرتبة الأولى في فكره، وبالرغم من ذلك فهي تظهر بمثابة ضرورة للمحافظة على الأخوة وعلى حقوق كل واحد. وحتى السلام الذي تطمح لتحقيقه يظل سلاماً مجرداً. فهل حين يعتبر ليفيناس أنّ مسؤولية الدولة تجاه الآخر هي مسؤولية من درجة ثانية وأنّه لا يمكن الاعتماد عليها بصفة مطلقة في مستوى تحملها لأعباء المسؤولية تجاه مواطنيها يعود لطبيعة الدولة القائمة على الحرب والعنف وعلى تقديم مصلحتها على مصلحة مواطنيها بل قد يصل الأمر بالدولة حدّ إقحام مواطنيها في

²³ Levinas Emmanuel, *Cahier de L' Herne*, Dirigé par Catherine Chalier et Miguel Abensour.n°60, 1961, pp63-64

حروب غير مشروعة، وتحارب بهم بدعوى حماية الوطن وضمان مصلحته العليا؟ فهل يمكن الحديث عندها عن نسيان السياسة للآخر ولمسؤولياتها تجاهه؟

يبدو أنّ حذر ليفيناس من الدولة متأّت من كون السياسة في جزء منها مرتبطة بالعنف والحرب، وهي معرضة لممارسة الطغيان حتى وإن سعت للتمويه كونها تتخذ شكلاً شرعياً وأنها تتجنب الانحراف نحو الشمولية، يقول ليفيناس في هذا الاتجاه "السياسة متروكة لنفسها تحمل في ذاتها الاستبداد"²⁴ فالعنف الذي تستعمله الدولة لمواجهة العنف قد ينتهي إلى الانحدار إلى درجة لا أخلاقية إلا في حالة خضوع السياسة للأخلاق فككل الحروب الحديثة كل حرب تحتاج إلى أسلحة تنقلب ضد من يستعملها.

²⁴ E. Levinas, *Totalité et Infini*, op.cit. p276



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com